البلاغة النبوية فى حديث

(مثل البخيل والمنفق ...)

الدكتور

على عبد الموجود نور الدين

مدرس البلاغة والنقد بالكلية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد فأجاد ، وأوتى الحكمة وفصل الخطاب ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأبرار الأطهار .

.... وبعد

فإن فقه بيان النبوة ، وتتبع أساليبه تركيبًا وتصويرًا وتحبيرًا ، والوقوف على أسراره ودقائقه ورقائقه والكشف عن مسالك الهدى والرحمة فيه بقصد نصرته وتعظيمه ، وإحياء سنته ﷺ تعلمًا وتعليمًا وتطبيقًا وذودًا ودفاعًا ، وتأدبًا ومحبة ... كل ذلك يمثل جوهر النصح لرسول الله ﷺ ، والذى عده النبى ﷺ أحد أغصان النصيحة التى هى عماد الدين وقوامه [١] .

ومن هذا المنطلق تأتى هذه الدراسة راغبة فى تحقيق بعض وجوه النصيحة لرسول الله ﷺ من خلال كشفها عن البلاغة النبوية فى قول النبى ﷺ : " مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ .... " [٢] الحديث .

وهو يصف فى بيان بالغ نوعين من الناس ، ويصور حال النفس البشرية فى نزوعها إلى إمساك المال ، أو إنفاقه فى وجوه الخير ، وأثر ذلك عليها .

وقد كان للوسائل البلاغية أثرها البالغ فى تصوير النماذج البشرية فى البيان القرآنى ، وذلك كنماذج المؤمنين ، والمنافقين ، المنتشرة فى القرآن الكريم ، وكذا فى البيان النبوى ، وذلك كنماذج الجليس الصالح والجليس السوء ، والمؤمن القارئ

---

(١) فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن تميم الدارى أن النبى ﷺ قال : " الدين النصيحة . قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " . صحيح مسلم – كتاب الإيمان – بيان أن الدين النصيحة – حديث رقم (٩٥) ١ / ٧٤ .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده ، وسيأتى تخريجه وبيان رواياته فى التمهيد .

للقرآن ، والمنافق القارئ للقرآن ، والبخيل ، والمنفق ، وغيرها ، وذلك لقدرة تلك الوسائل على تربية جوانب الشخصية على نحو يولد فى النفس نفورًا منها وبغضًا فى سلوكها ، أو ميلاً إليها ورغبة فى مشاركتها والسير على طريقها [١] .

وقد آثرت استفراغ جهدى لإحكام فهم الحديث وتدبره ، معتمدًا على منهج التحليل البيانى القائم على تجلية السياق ، وبيان الأغراض والمقاصد ، وتحليل التراكيب اللغوية ، والأساليب البلاغية ، بقصد الكشف عن خصوصيات المعانى وأحوالها .

وقد اعتمدت رواية الإمام البخارى فى باب الزكاة لتكون منطلقًا للتحليل ، فجعلتها أم الصيغ ، وجمعت فى تحليل بيانها وسبر أغوار تراكيبها الروايات الأخرى .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ، وناصحًا لدينه ولسنَّة نبيه ﷺ .

والله ولى التوفيق

---

(١) ينظر : دور البلاغة فى تأدية الأغراض الدينية – د / محمد إبراهيم عبد العزيز ص ٥ – مطبعة السعادة – الطبعة الأولى ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م .

تمهيد

منـزلة البيان النبوى فى الإسلام :

إذا كانت السنة هى ثانى مصادر التشريع فى الفقه الإسلامى بعد القرآن الكريم ، فإن البيان النبوى هو أيضًا المصدر الثانى فى البلاغة والبراعة والبيان بعد البيان العلىّ وذلك لأن :

١ – البيان النبوى هو معين الوحى الذى تجلت فيه فصاحة النبى ﷺ وبلاغته التى فاقت كل فصاحة بشرية ، يقول ﷺ : " أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد " (١) .

ولم يكن هذا القول منه ﷺ على سبيل الفخر والمباهاة ، ولكنها الحقيقة التى قصد إلى تقريرها ، فإن فصاحة لسانه ونقاء بيانه قد تقرر عند خاصة الناس فضلاً عن عامتهم .

وقد جمع له بذلك ﷺ قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى الذى لا يحيط بعلمه بشرىّ (٢) .

٢ – وبيان النبوة من مشكاة بيان الله عز وعلا ، يقول ﷺ : " ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه " ، وفى رواية : " ما يعدله " (٣) .

وهى وإن كانت مثلية تبيين وتشريع ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، فإنها من دونها فى الإعجاز البيانى ، إذ الإعجاز البيانى قائم على التحدى ، وهو خصيصة من خصائص البيان القرآنى ، غير أن بيان النبوة يعلو كل آفاق البيان البشرى على الإطلاق ، فهو وحى فى مضمونه وهداه (٤) .

---

(١) ينظر : شرح أحاديث من صحيح البخارى – د / محمد أبو موسى ص ٢١ – مكتبة وهبة – الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .

(٢) ينظر : الشفا بتعريف المصطفى للقاضى عياض ١ / ٤٧ – ط مصطفى الحلبى .

(٣) سنن أبى داود : كتاب السنة – باب فى لزوم السنة ٢ / ٥٥٢ .

(٤) ينظر : فقه بيان البنوة منهجًا وحركة – د / محمود توفيق سعد ص ٥ – مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

فقوله ﷺ : " أوتيت الكتاب ومثله معه " يحتمل وجهين :

أحدهما : أن معناه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو مثل ما أعطى من الظاهر المتلو .

والآخر : أنه أوتى الكتاب وحيًا يُتلى ، وأُوتى من البيان مثله ، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب ، فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرح ما فى الكتاب ، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله ، كالظاهر المتلو من القرآن [١] .

وبهذا تتضح منـــزلة السنة من القرآن ، ويتجلى وجه المماثلة بينهما فى الحديث الشريف .

٣ – وقد كان منطقه ﷺ على أتم ما يتفق فى طبيعة اللغة ويتهيأ لها إحكام الضبط وإتقان الأداء : لفظ مشبع ولسان دليل ، وتجويد فخم ، ومنطق عذب ، وفصاحة متأدبة ، ونظم متساوق ، وطبع يجمع ذلك كله [٢] ..

٤ – ومن كمال تلك النفس العظيمة وغلبة فكره ﷺ على لسانه قل كلامه وخرج قصدًا فى ألفاظه ، محيطًا بمعانيه ، تحسب النفس قد اجتمعت فى الجملة القصيرة والكلمات المعدودة بكل معانيها .

٥ – المعانى فى بيان النبوة ربانية المصدر ، بشرية المنطق ، تمثل قمة البلاغة الإنسانية ، فالناظر فى معانيه ﷺ يدرك أنها المعانى التى هى إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام وليس فوقه مقدار إنسانى من البلاغة والتسديد ، وبراعة القصد والمجئ فى كل ذلك من وراء الغاية [٣] .

---

(١) معالم السنن للإمام الخطابى ٤ / ٢٧٦ – تحقيق / عبد السلام عبد الشافى – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ص ٢٩٦ – المكتبة التوفيقية .

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة العربية للرافعى ص ٢٨٢ ، ٣٠٠ .

٦ – والأحاديث النبوية ليست أفكارًا وخواطر يستخرجها المتكلم من ذات نفسه ، وإنما هى فى كلام رسول الله ﷺ وحى يُوحى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (١) ، وفى كلام الصحابة – رضوان الله عليهم – أخبار تحكى ، والوحى فى كلامه ﷺ لا يمنع أن يكون لكلامه وسم يعرف به وخصوصية تدل عليه لا من جهة طابع النبوة الذى هو ظاهر جدًّا فى كلامه ﷺ ، وإنما من جهة ما يتميز به الكلام وما يكون له به من سمت وطريق ومذهب ؛ لأن الوحى فى كلامه ﷺ معنى يُلقَى فى روعه ﷺ كما تلقى المعانى فى الصدور ، ثم يحدث عنه ﷺ ببيانه وطريقه ومذهبه ، فمسألة الوحى لا تمنع فى البحث عن المذهب والطريق .

والمعلوم أن سمة البيان النبوى الوضوح وجلاء العبارة لفظًا وتركيبًا ومضمونًا وهو ينطلق فى ذلك من كونه تبيينًا لما فى كتاب الله تعالى من الهدى والرحمة .

يقول الإمام الخطابى – رحمه الله – : " إن الله عز وجل لما وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه ، ونصبه منصب البيان لدينه اختار له من اللغات أعرقها ، ومن الألسن أفصحها وأبينها ، ليباشر فى لباسه مشاهد التبليغ وينبذ القول بأوكد البيان والتعريف " (٢) .

ووضوح البيان النبوى يجعله غنيًّا عن الشرح والتوضيح ، ويجعل مهمة البحث فيه تقوم على : تحليل بنائه واستكشاف الصنعة البيانية ، والمكونات اللغوية التى قام النص الشريف عليها ، وشكلت صورته وحددت هيأته ووضعت ملامحه ، وجعلت منه وله هيأة يختلف بها عن غيره من النصوص ، وترى البون بينه وبينها كالبون بين

---

(١) سورة النجم : الآيتان ٣ ، ٤ .

(٢) ينظر : غريب الحديث للخطابى ١ / ٧٠ ، ٧١ – تحقيق / عبد الكريم إبراهيم العزباوى – ط مركز البحث العلمى وإحياء التراث – كلية الشريعة – جامعة أم القرى – السعودية ..

رجل ورجل ، وفرس وفرس ، كما كان يقول الشيخ عبد القاهر – رحمه الله تعالى – وكان يشير إلى أن صور المعانى وهيئاتها تبين بخصوصيات تكون فى هذه ولا تكون فى تلك ، وبها يفترق كلام من كلام كما تفرق خصوصية النقش خاتمًا من خاتم ، وسوارًا من سوار [١] .

٧ – يمتاز نسق البلاغة النبوية فى جملته بأنه ليس من شىء أنت واجده فى كلام الفصحاء ، وهو معدود من ضروب الفصاحة ومتعلقاتها – إلا وجدته فى هذا النسق على مقدار من الاعتبار يفرده بالميزة ، ويخصه بالفضيلة ، لأن كلامه ﷺ فى باب التمكين لا يعدله شىء من كلام الفصحاء .. ، إذ هو مبنى على :

– الخلوص فى اللغة وفى الأسلوب .

– القصد والإيجاز والاقتصار على ما هو من طبيعة المعنى فى ألفاظه ، ومن طبيعة الألفاظ فى معانيها ، ومن طبيعة النفس فى حظها من الكلام وجهتيه اللفظية والمعنوية .

– الاستيفاء لمعانى الكلام ومقاصده ، بحيث يخرج الكلام مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيها نقصان ، ولا إحالة ولا اضطراب ، فتتجلى الألفاظ فى تركيب تقتضيه طبيعة المعنى فى نفسه ، وطبيعته فى النفس [٢] .

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ – تحقيق الشيخ / محمود شاكر – مطبعة المدنى – الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م ، وشرح أحاديث من صحيح البخارى – د / محمد أبو موسى ص ٣٤ ، ٣٥ – مكتبة وهبة – الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة العربية للرافعى ص ٣٣٨ – ٣٤٠ .

روايات الحديث :

هذا الحديث متفق على صحته : أخرجه البخارى [١] ، ومسلم [٢] فى الصحيحين ، وأحمد فى مسنده [٣]، والنسائى فى السنن [٤]، وابن حبان فى صحيحه [٥]، جميعهم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – ، كما ذكره الإمام النووى فى رياض الصالحين [٦] .

وقد تنوعت طرق روايته فجاء بثلاثة طرق :

---

(١) صحيح البخارى (محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخارى) كتاب الزكاة – باب مثل المتصدق والبخيل ٢ / ٥٢٣ – حديث رقم (١٣٧٥) – وباب الإشارة فى الطلاق والأمور ٥ / ٢٠٣٠ – حديث رقم (٤٩٩٣) – وباب ما قيل فى درع النبى ﷺ ٣ / ١٠٦٨ – حديث رقم (٢٧٦٠) – وباب ما قيل فى جيب القميص عند الصدر وغيره ٥ / ٢١٨٥ – حديث رقم (٥٤٦١) . [تحقيق د / مصطفى ديب – دار ابن كثير – اليمامة – بيروت – الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م] .

(٢) صحيح مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى) باب مثل المنفق والبخيل ٣ / ٨٩ – حديث رقم (٢٤٠٦ ، ٢٤٠٨) [طبعة دار الجيل – بيروت – لبنان] .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢ / ٢٥٦ – حديث رقم (٧٤٧٧ ، ٢ / ٣٨٩ – حديث رقم (٩٠٤٥) ، ٢ / ٥٢٢ – حديث رقم (١٠٧٨٠) ، ١٢ / ٤٥٤ – حديث رقم (٧٤٨٣) [تحقيق / شعيب الأرناؤوط وآخرين – مؤسسة الرسالة – الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م] .

(٤) سنن النسائى بشرح السيوطى – باب صدقة البخيل ٢ / ٣٧ – حديث رقم (٢٣٢٧ ، ٢٣٢٩ – دار الكتب العلمية – بيروت .

(٥) صحيح ابن حبان ٨ / ١٢٣ – باب ذكر الخبر الدال على أن من لم يتصدق هو البخيل – حديث رقم (٣٣٣٢) – تحقيق / شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ..

(٦) رياض الصالحين – للإمام النووى [محيى الدين زكريا يحيى بن شرف النووى] باب الكرم والجود والإنفاق فى وجوه الخير ص ٢٩٠ – حديث رقم (٥٥٨ – تحقيق د / عبد المعطى قلعجى – حمدان جعفر – دار الغد العربى بالقاهرة – الطبعة الأولى .

الأول : طريق أبى الزناد [١] عن عبد الرحمن الأعرج [٢] عن أبى هريرة .

يقول الإمام البخارى فى صحيحه [٣] : " حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد أن عبد الرحمن حدثه أنه سمع أبا هريرة – رضى الله عنه – أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ ، عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ ، مِنْ ثُدِيِّهِمَا [٤] إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلاَ يُنْفِقُ [٥] إِلاَّ سَبَغَتْ [٦] ، أَوْ وَفَرَتْ ، عَلَى جِلْدِهِ ، حَتَّى تُخْفِيَ [٧] بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا [٨]

---

(١) أبو الزناد هو : عبد الله بن ذكوان ، وأبو الزناد كنيته ، وكان يكنى ايضًا أبا عبد الرحمن ، ولاه عمر بن عبد العزيز خراج العراق ، كما ولى خراج المدينة ، وكانت له حلقة فى مسجد رسول الله ﷺ ، حدث عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد وغيرهم ، وكان ثقة كثير الحديث فصيحًا بصيرًا بالعربية عالمًا عاقلاً ، مات بالمدينة فى رمضان عام ١٣٠ هـ عن ست وستين سنة . (الطبقات الكبرى – محمد بن سعد الهاشمى ١ / ٣١٩ – مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة ١٤٠٨ هـ) .

(٢) الأعرج : هو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج أبو داود المدنى ، مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، روى عن أبى هريرة وأبى سعيد وعبد الله بن مالك وغيرهم ، وقد روى عنه زيد بن أسلم وصالح بن كيسان والزهرى وأبو الزناد وغيرهم ، مدنى تابعى ثقة ، مات بالإسكندرية عام ١١٧ هـ . (تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ٦ / ٢٦٠) – دار الكتاب الإسلامى – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ..

(٣) البخارى – كتاب الزكاة – باب مثل المتصدق والبخيل ٢ / ٥٢٣ – حديث رقم (١٣٧٥) ، وقد أعاده معلقًا من حديث جعفر عن أبى الزناد عن عبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة – باب الإشارة فى الطلاق والأمور ٥ / ٢٠٣٠ ، حديث رقم (٤٩٩٣) مع اختلاف فى بعض الألفاظ . وذكره الإمام أحمد فى مسنده من حديث محمد بن إسحاق عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ٢ / ٢٥٦ – حديث رقم (٧٤٧٧) .

(٤) فى مسند أحمد " من لدن ثديهما " بزيادة " لدن " ، وعند البخارى – فى الطلاق – " من لدن ثدييهما " بالتثنية وبزيادة " لدن " .

(٥) فى البخارى – باب الإشارة فى الطلاق والأمور " فلا ينفق شيئًا " بزيادة " شيئًا " .

(٦) فى الطلاق " مادت " بدلاً من " سبغت " .

(٧) فى الطلاق : " تجن " بدلاً من تخفى " ، وفى مسند أحمد : " فأما المنفق فلا ينفق منها إلا اتسعت حلقة مكانها فهو يوسعها عليه " .

(٨) فى الطلاق : " أما البخيل فلا يريد إلا لزقت كل حلقة موضعها " بحذف " أن ينفق شيئًا " .

إِلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا [١] ، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا [٢] وَلاَ تَتَّسِعُ " [٣] ، وقد اعتمدت هذه الرواية لتكون منطلقًا للتحليل البلاغى ، فجعلتها أم الصيغ وجمعت فى تحليل بيانها وسبر أغوار تراكيبها الروايات الأخرى ، التى تسهم فى اكتمال صورة المعنى وإبرازه واضحًا جليًّا .

والثانى : طريق عبد الله [٤] بن طاوس عن أبيه [٥] عن أبى هريرة [٦] .

والثالث : طريق الحسن بن مسلم [٧] عن طاووس عن أبى هريرة [٨] .

---

(١) فى الطلاق : " موضعها " بدلاً من " مكانها " ، وعند أحمد " وأما البخيل فإنها لا تزداد عليه إلا استحكامًا " .

(٢) فى الطلاق : " فهو يوسعها فلا تتسع " بالفاء بدلاً من الواو .

(٣) وزاد فى الطلاق : ويشير بإصبعه إلى حَلْقِه .

(٤) هو أبو محمد عبد الله بن طاوس بن كيسان اليمانى ، روى عن أبيه ، وعطاء ، وعمرو بن شعيب ، وغيرهم ، وروى عنه ابناه : طاوس ، ومحمد ، وعمرو بن دينار ، وابن إسحاق ، ومعمر ، وابن جريج ، والسفيانان ، وغيرهم ، قال أبو حاتم والنسائى : ثقة . (تهذيب التهذيب ٥ / ٢٣٤ رقم ٤٥٩) .

(٥) هو طاوس بن كيسان اليمانى ، الهمدانى ، كنيته أبو عبد الرحمن ، كان من عُبَّاد أهل اليمن وفقائهم ، ومن سادات التابعين ، روى عن ابن عمر ، وابن عباس ، وأبى هريرة ، وروى عنه ابنه عبد الله ، وعمرو بن دينار ، وغيرهما ، مات عام ١٠٦ هـ . (الثقات لابن حبان – باب الطاء ٤ / ٣٩١ رقم ٣٥١١ – طبعة دار الفكر – الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م) .

(٦) البخارى – باب ما قيل فى درع النبى ﷺ ٣ / ١٠٦٨ – ح رقم (٢٧٦٠) ، ومسلم باب المنفق والبخيل ٣ / ٨٩ – حديث رقم (٢٤٠٨) ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٣٨٩ – حديث رقم (٩٠٤٥) ، والنسائى ٢ / ٣٧ – حديث رقم (٢٣٢٩) ، وابن حبان فى صحيحه – باب ذكر الخبر الدال على أن من لم يتصدق هو البخيل ٨ / ١٢٣ – حديث رقم (٣٣٣٢) ، من طريق همام بن منبه عن أبى هريرة .

(٧) هو الحسن بن مسلم بن يناق المكى ، سمع مجاهدًا وطاوسًا ، وسمع منه بن جريج ، قال عنه أبو حاتم الرازى : هو صالح الحديث ، وقال أبو زرعة : هو صالح ثقة ، مات عام ١٠٢ هـ قبل أبيه مسلم . (ينظر : الثقات لابن حبان ٥ / ٤٠٠ ، والتاريخ الكبير للبخارى ٢ / ٣٠٦) .

(٨) البخارى – باب ما قيل فى جيب القميص من عند الصدر ونحوه ٥ / ٢١٨٥ – حديث رقم (٥٤٦١) ، ومسلم – باب مثل المنفق والبخيل ٣ / ٨٩ – حديث رقم (٢٤٠٧) ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٥٢٢ – حديث رقم (١٠٧٨٠) .

بناء المعانى فى الحديث الشريف

بنى هذا الحديث الشريف على المثل وصيغ بأسلوبه القائم على التمثيل والتصوير ، فبدأ بكلمة " مَثَل " ، وهذا يعنى أن إفهام المقصود من الكلام لا يتحقق بمجرد أن تسمع الآذان الألفاظ كما فى الأحاديث التى تخبر بالمراد خبرًا مباشرًا ، بل يتحقق بما تفهمه اللغة والألفاظ الظاهرة ، وبما تراه العيون ، وفرق بين المعنى الذى تأخذه من لفظ تسمعه الآذان ، والمعنى التى تأخذه من صورة تراها العيون ، اللفظ هنا يحيلك إلى معنى ثم يحيلك هذا المعنى إلى معنى فتأخذ مقصودك من معنى المعنى وليس من المعنى [١] .

وغنى عن البيان أن معرفة بناء المعانى فى الكلام تقتضى مراجعته كلمة كلمة وجملة جملة وحرفًا حرفًا ، لمعرفة روابط الكلمات ، وروابط الجمل ، وأنواع ترتيبها وتلاقيها .

والحديث الشريف الذى بين أيدينا قائم على جملة واحدة هى جملة المثل ، ومتعلقاتها : " مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ ، عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ ، مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا " وهى مبتدأ وخبر .

وقد داخل تكوين هذه الجملة عطف المنفق على البخيل بالواو ، وهما متناقضتان ، مما يعنى أن تلاقيهما فى المثل من باب التلاقى فى أصل الجنس ، والتمايز فى الأفعال والصفات ، وهذا ما عبر عنه التفصيل الآتى فى قوله ﷺ : " فَأَمَّا الْمُنْفِقُ ..... وَأَمَّا الْبَخِيلُ " الحديث . بعد الإجمال فى جملة المثل ، وكذا التعبير بقوله " رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ " .

---

(١) ينظر : شرح أحاديث من صحيح البخارى – د / محمد أبو موسى ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

و (أل) فى البخيل والمنفق للجنس ، أى يندرج تحت كل منهما كثير من الناس ، فهما يمثلان نموذجين من الناس ، قصد الحديث إلى تصويرهما .

كما داخل تكوين هذه الجملة أيضًا جملة صفة هى قوله ﷺ : " عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ " إذ هى صفة لـــ (رجلين) ، والجار والمجرور (من حديد) متعلق بالجبتين لبيان نوعهما ، وكذا الجار والمجرور فى قوله ﷺ " مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا " يبين موضع الجبتين ومكانهما ابتداء ، وهذا هو موطن التلاقى والجمع بينهما ، فكل منهما عليه جبة (أى درعًا) من حديد ، تمتد من ثدييه إلى تراقيه ، وفى ذلك إشارة إلى عطاء الله تعالى ونعمه ورزقه لكل منهما .

وجملة قوله : " فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلاَ يُنْفِقُ إِلاَّ سَبَغَتْ ، أَوْ وَفَرَتْ ، عَلَى جِلْدِهِ ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَه " تفريع من الجملة السابقة ، وتفصيل لما فيها من إجمال ، ومن ثم صدرت بالفاء ، و (أما) التفصيلية ، وهى تتكون من مبتدأ وخبر ، وقوله " فَلاَ يُنْفِقُ إِلاَّ سَبَغَتْ " جواب (أما) وقد تصدرته الفاء الداخلة على الفعل المضارع المنفى ، بـــ (لا) ، وقوله " إِلاَّ سَبَغَتْ " استثناء مفرغ يثبت تجدد سبوغ الدرع على جلده كلما أنفق شيئًا .

فقوام الجملة على أسلوب القصر بالنفى والاستثناء الذى هو أقوى طرق القصر فى الدلالة على النفى والإثبات .

وقد داخل تكوين هذه الجملة الجار والمجرور " عَلَى جِلْدِهِ " والمتعلق بالفعل " سَبَغَتْ " ، والجملة الغائية " حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ " فهى غاية سبوغ الدرع على جلد المنفق ، والمقصود من البنان الإصبع ، يعنى أصابع يديه ورجليه ، وجملة " وَتَعْفُوَ أَثَرَه " فعلية معطوفة بالواو على جملة " تُخْفِيَ بَنَانَهُ " ، فهى تجتمع معها وتشاركها فى الغاية

التى ينتهى عندها سبوغ الدرع على جلد المنفق الذى يتحدد منه الإنفاق باستمرار حتى تتحقق تلك الغاية التى تجسد الستر ومحو الأثر .

وجملة " وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِق شَيْئًا إِلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا " عطف بالواو على جملة " فَأَمَّا الْمُنْفِقُ " المتفرعة عن جملة المثل (الأم) ، والعطف يقتضى اشتراك الجملتين المعطوفة والمعطوف عليها فى التفريع . يؤكد ذلك تكرار (أما) التفصيلية ، وهى مكونة من مبتدأ " البخيل " وخبر وهو جملة " فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا " . وقوام هذه الجملة الفعلية على أسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء .

وقد دخل حرف النفى (لا) على الفعل المضارع (يريد) الذى يعبر عن تجدد لزق الحلقات والتصاقها بصدره وغلها ليديه ، كلما تجددت منه إرادة إنفاق أى شىء ، وحدثته نفسه به .

وفاعل (يريد) ضمير (البخيل) ، والمصدر المؤول " أَنْ يُنْفِقَ " مفعول " يريد " و " شيئًا " مفعول " ينفق " .

وجملة " إِلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا " جملة مستثناة بـــ " إلا " استثناء مفرغًا .

وقد زاد فى جملة " البخيل " فعل الإرادة المسبوق بـــ " إن " المصدرية ، وصرح بالمفعول به " شيئًا " للفعل " ينفق " ، وقد طوى ذكره من جملة " المنفق " ، كما صرح بالفاعل (كل) فى جملة الاستثناء " لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا " ، بينما أشار إليه هناك بالتاء .

والزيادة ، والذكر ، والحذف كلها يقع فى الكلام لمغزى يقصد ، وفوائد جمة تُؤم وتُطلب وتطلب ، كما سنبينه فى موضعه بمشيئة الله تعالى .

وجملة " فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَتَّسِعُ " تفريع بفاء التعقيب من جملة الاستثناء قبلها " إِلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا " ، وهى مكونة من مبتدأ (فهو) وخبر جملة فعلية (يوسعها) .

وقوله " وَلاَ تَتَّسِعُ " جملة فعلية منفية بـــ " لا " معطوفة على جملة الخبر قبلها ، وهى حال من الضمير فى " يوسعها " .

والمعنى : أن البخيل حينما تلتزق وتضيق عليه حلقات الدرع يحاول جاهدًا توسيعها ، والحال أنها لا تتسع أبدًا ، بل تزداد عليه استحكامًا كما جاء فى رواية أحمد [(١)] .

ومعلوم أن الجمل الحالية من تمام معنى ما قبلها ؛ لأن الحال خبر ملحق بالخبر ، وأن المعطوف والمعطوف عليه كالشىء الواحد لاشتراكهما فى حكم واحد .

وبذا يتضح لنا أن المعانى فى الحديث الشريف قد بنيت على جملة واحدة ، منها تناسلت الجمل ، وفيها تمازجت التراكيب ، وتناغت الكلمات والحروف حتى صار الحديث كله جملة واحدة ، تداخلت فيها الجمل وترابطت ترابطًا قويًّا ، وهذا هو النمط العالى والباب الأعظم كما سماه الإمام عبد القاهر – رحمه الله – ووصفه بأنه يدق فيه الصنع ويحسن فيه النظم ، ولا ترى سلطان المزية يعظم فى شىء كعظمه فيه [(٢)] .

والتركيب والتداخل والتشابك فى صور التشبيه والتمثيل ليس من النمط العالى والباب الأعظم فحسب ، وإنما هو " مما ندر منه لطف مأخذه ، ودق نظر واضعه " [(٣)] .

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢ / ٢٥٦ – حديث رقم (٧٤٧٧) .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز ص ٩٣ – ٩٥ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٩٥ .

وإنما كان لصور التشبيه والتمثيل هذه الميزة الإضافية ؛ " لأن تركيب التشبيه فيه من مراعاة الأحوال والخفايا الشيء الكثير ، وتذكر ما فى تحليل صور التشبيه من إشارات ، ورموز [(١)] ، واستدراكات ، وكيف تخصب الصور ، وتغنى بالمحترزات والإضافات، ومراعاة دقائق المعانى النحوية فى تكوين الصورة ، وكيفية صياغتها "[(٢)] .

بلاغة التمثيل فى قوله ﷺ : " مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ .... " .

المَثَل : الشبه ، يقال : مِثْل ومَثَل وشِبْه وشَبَه بمعنى واحد [(٣)] ، والمثل يقال على وجهين :

أحدهما : بمعنى المِثْل نحو شِبْه وشَبَه ، قال بعضهم : وقد يعبر بهما عن وصف الشيء ، نحو قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [(٤)] .

والآخر : عبارة عن المشابهة لغيره فى معنى من المعانى ، أى معنى كان .

وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، وذلك أن الند يقال فيما يشارك فى الجوهر فقط ، والشَّبه : يقال فيما يشارك فى الكيفية فقط ، والمساوى : يقال فيما يشارك فى الكمية فقط ، والشكل يقال فيما يشاركه فى القدر والمساحة فقط ، والمثل

---

(١) فرق أهل العلم بين الإشارة والإيماء وبين الرمز ، وذلك عند حديثهم عن تفاوت الكناية إلى تعريض ، وتلويح ، ورمز ، وإيماء ، وإشارة ، فذكروا : أن أصل الإشارة أن تكون حسية وهى ظاهرة ، أى لا خفاء فيها ، ومثلها الإيماء ، وأما الرمز فهو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية ، كالإشارة بالشفة أو الحاجب ، فإنه إنما يُشار بهما غالبًا عند قصد الإخفاء . (ينظر : مواهب الفتاح لابن يعقوب ٤ / ٢٦٩ ، ٢٧٠ ضمن شروح التلخيص) ، والإيضاح مع البغية ص ٥٥١ – مكتبة الآداب ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .

(٢) مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى – د / محمد أبو موسى ص ٣١٦ – مكتبة وهبة .

(٣) لسان العرب (مثل) .

(٤) سورة الرعد : من الآية ٣٥ .

عام فى جميع ذلك ، ولهذا لما أراد الله تعالى نفى التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [١] [٢] .

والمثل الشىء الذى يضرب لشىء مثلاً فيجعل مِثْله [٣] ، والمثل : عبارة عن قول فى شىء يشبه قولاً فى شىء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره [٤] .

والمثل : عبارة تقال لتشبيه حال بنظيرتها ، أو قصة مَثَل : فى التشبيه العجيب ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾ [٥] [٦] .

وضرب الأمثال سمة بارزة فى البيان القرآنى ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٧] ، وفى آية أخرى ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [٨] .

فأمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون ، الذين هم أهل المعرفة والعلم والعمل ؛ لأن الأمثال والتشبيهات إنما هى الطرق إلى المعانى المحتجبة فى الأستار حتى تبرزها وتكشف عنها وتصورها للأفهام .

---

(١) سورة الشورى : من الآية ١١ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٤٦٣ – ط دار المعرفة – بيروت ١٩٧٠ م .

(٣) لسان العرب مادة (مثل) .

(٤) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٦٣ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ١٧ .

(٦) معجم ألفاظ القرآن الكريم ٢ / ١٠٣٢ – ١–٣٥ – مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

(٧) سورة الحشر : من الآية ٢١ .

(٨) سورة العنكبوت : الآية ٤٣ .

قال الزمخشرى : أى لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا هم ، كما صور هذا التشبيه ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ ﴾ [١] ، الفرق بين حال المشرك وحال الموحد [٢] .

وقد أكثر النبى ﷺ – اقتداءً بالقرآن – من الأمثال زيادة فى كشف المعانى وتقريبها للأفهام عن طريق تشبيه شىء من شىء فى حكمه وتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر [٣] .

فإبراز المعانى فى صورة التمثيل أوقع فى القلب وأقمع للخصم الألد ؛ لأنه يريك المتخيل محققًا محسوسًا ، ولشأنه العجيب فى إبراز الحقائق المستورة ، ووضع الستور عن وجه الحقيقات كثر فى بيان الوحى قرآنًا وسنة [٤] .

وغنى عن البيان أن المتخيل فى الأمثال النبوية هو ما يجرى فى خيال المتلقين والمستمعين من المعانى المتخيلة والمستورة ، أما النبى ﷺ فإنه لم يكن ينـــزع فى تشبيهاته من التخييل والتهويم الذى قد يسبح فيه الأدباء المبدعون ، وإنما هو ينـــزع من الحقيقة الشاخصة أمام البصائر الثاقبة حجب الكون المحيط ، والتى تزيدها الغفلة كثافة والاشتغال بزخرف الحياة الدنيا تراكبًا وتراكمًا .

الرسول ﷺ ينـــزع فى تشبيهاته ويستخرجها من كنـــز الحقيقة المطمورة ، فإذا به يجمع لك بين حقائق أشياء لا تقوم فى عقل وإن عظم أن بينها تلاقيًا وتعانقًا ،

---

(١) سورة العنكبوت : من الآية ٤١ .

(٢) الكشاف ٣ / ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) الأمثال فى القرآن الكريم لابن القيم ص ٩ – مكتبة الصحابة – الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

(٤) ينظر : التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوى ٢ / ٧١٦ – مكتبة الإمام الشافعى – الرياض – الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

فيكون ذلك أليط بالقلب وأعلق به [١] ، وأدعى إلى صبابة النفوس وشغفها به لظهوره من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وجمعه بين المتباعدين [٢] .

والتمثيل فى قول النبى ﷺ : " مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ ، عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ ، مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا " يؤكد هذا المعنى ، ويسبح فى محيط هذا اللون من التشبيه القائم على الجمع بين الشيئين المتباعدين ، ليحدث بينهما تلاقيًا وتعانقًا ، عن طريق تشبيه التمثيل الذى يجلى المعانى المحتجبة فى الأستار ، ويكشف عنها ويصورها للأفهام .

فحال البخيل الممسك القابض على المال ، وحال نفسه المحبوسة عن الإحساس ، الممنوعة عن البر والخير قد أورثت قلبه ضيقًا وحرمت صدره من الانشراح ، فبدا صغير النفس قليل الفرح كثير الهم والغم والحزن ، لا يكاد تقضى له حاجة ولا يعان على مطلوب ، فهو كرجل عليه جبة من حديد قد جمعت يداه إلى عنقه بحيث لا يتمكن من إخراجها ولا حركتها ، وكلما أراد إخراجها أو توسيع تلك الجبة لزمت كل حلقة من حلقه موضعها ، فهكذا البخيل كلما أراد أن يتصرف وحدثته نفسه بذلك منعه شحه وبخله ، فبقى قلبه فى سجنه وصدره فى ضيقه كما هو [٣] .

---

(١) ينظر : أثر التشبيه فى تصوير المعنى قراءة فى صحيح مسلم – د / عبد البارى طه سعيد ص ١١ ، ١٢ – الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

(٢) يقول الأمام عبد القاهر : " ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشىء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجدر ، فسواء فى إثارة التعجب ، وإخراجك إلى روعة المستغرب ، وجودك الشىء من مكان ليس من أمكنته ، ووجود شىء لم يوجد ولم يعرف من أصله فى ذاته وصفته " . (أسرار البلاغة ص ١٣١ – ت الشيخ شاكر – مطبعة المدنى).

(٣) ينظر : الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن قيم الجوزيه ١ / ٤٢ – دار الكتاب العربى – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

فالمشبه حال البخيل وحال نفسه وقلبه من قبيل المعانى المعقولة المحتجبة فى الأستار التى تحتاج إلى مثل تراه العيون يكشف عنها ويقربها للأفهام ، ومن ثم صورها النبى ﷺ برجل عليه جبة من حديد قد أطبقت على صدره وغلت يداه إلى عنقه فأعجزتها عن الحركة ، وعن توسيع تلك الجبة التى التصقت حلقاتها بصدره ، وهذا من قبيل المحسوسات التى تبصرها العيون وتشاهدها ، وبذا يكون التمثيل قد فتح إلى مكان المعقول من القلوب بابًا من العين ، فتزداد النفوس به أنسًا ، وذلك لأن التمثيل بالمشاهدة يزيدك أنسًا ويملأ نفسك سرورًا وطَربًا كما ذكر الإمام عبد القاهر الجرجانى [١] .

ووجه الشبه الهيئة المكونة من حبس النفس عارية من الستر ، وضيق الصدر وحرمانه من الانشراح والسعة .

وهو عقلى وإن كان الطرفان مختلفين من حيث الحسية والعقلية ؛ لأن التشبيه بالوجه العقلى أعم من التشبيه بالوجه الحسى ، وقد ذكر أهل العلم أن الوجه الحسى يكون طرفاه حسيين ؛ لامتناع أن يدرك بالحس من غير الحسى شىء ، والعقلى طرفاه إما عقليان ، أو حسيان ، أو مختلفان ؛ لجواز أن يدرك بالعقل من الحسى شىء [٢] .

أما حال المنفق المتصدق ، فإنه كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه ، وانفسح بها صدره واتسع ، وهشت بها نفسه وبشت .

وهذه المعانى القلبية تحتاج إلى ما يقربها من الأفهام ، ويجعلها أليط بالقلوب وأعلق بها فتزداد النفوس بها أنسًا ، ومن ثم صورها النبى ﷺ وضرب لها مثل رجل

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٢٧ – ت الشيخ شاكر .

(٢) ينظر : الإيضاح مع البغية ص ٣٩٩ – مكتبة الآداب بالقاهرة – الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م .

عليه جبة من حديد قد اتسعت عليه حتى غطت جسده وسترته واستمرت فى الاتساع حتى أخفت أصابع يديه ورجليه ، وأزالت أثر مشيه ، فكذلك حال المنفق .

فالمشبه حال المنفق المتصدق وحال نفسه حين التصدق وبعده وما يعتريه من انشراح القلب وانفساح الصدر واتساعه ، وستر الذنوب ومغفرتها وتكفير الخطايا .

والمشبه به مشهد هذا الرجل الذى اعتلت صدره جبة من حديد ، واتسعت عليه حتى غطت بدنه وأخفت أثره .

ووجه الشبه الهيئة المكونة من انفساح النفس ، وانشراح الصدر ، والاتساع والتغطية والستر ، وهو عقلى .

فهو كما نرى منتزع من أمور مجموعة قرن بعضها إلى بعض ، وذلك أنه روعى فى المنفق فعل مخصوص وهو انفساح النفس وانشراح الصدر عند التصدق ، وأن يكون للصدقة صورتها المخصوصة وأثرها فى قوة فرح المتصدق وعظم سروره وفلاح نفسه ، وكذا فى المشبه به ، ولو لم يكن فى الصدقة إلا هذه الفائدة – فلاح النفس – وحدها لكان العبد حقيقًا بالاستكثار منها والمبادرة إليها ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

ومعلوم أن التشابه العقلى بين الطرفين يحتاج إلى وعى ودقة وتمعُّن فى إدراكه ، وهذا مطلب لطيف موقعه عند النقاد العرب .

يقول الإمام عبد القاهر : " ومن المركوز فى الطبع أن الشىء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، وبالمزية أولى ، فكان موقعه من النفس أجل وألطف ، وكانت به اضن وأشغف ، ولذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ ، كما قال (القطامى) من البسيط :

---

(١) سورة الحشر : من الآية ٩ .

وَهُـــنَّ يَنبِـــذنَ مـــن قَـــولِ يُصـــبنَ بـــه

مواقـــعَ المـــاءِ مـــن ذي الغُلَّـــةَ الصّـــادي [١]

وأشباه ذلك مما ينال بعد مكابدة الحاجة إليه ، وتقدم المطالبة من النفس به " [٢] .

والمثل العجيب كلما دق معناه ولطف ، حتى يحتاج إلى إخراجه بغوص الفكر عليه ، وإحالة الذهن فيه ، كانت النفس بما يظهر لها منه أكثر التذاذًا أو أشد استماعًا مما تفهمه فى أول وهلة ، ولا تحتاج فيه إلى نظرة وفطنة ، وليس ذلك إلا لشرفها وبعد غايتها [٣] .

الحديث تصوير رائع لمتناقضين :

واضح أن الحديث يصور ببراعة بيانية فائقة مشهدين متناقضين متباينين ، مشهد البخيل ، ومشهد المنفق ، وهذا يعنى تعدد صورة التمثيل فى الحديث حيث شُبه طرفان بطرفين ، فهو تشبيه متعدد ملفوف [٤] قد أحال المنفق المتصدق مشهدًا ، والبخيل الممسك مشهدًا وذلك فى سياق التوجيه والنصح بطريق التنفير والترهيب من مشهد البخيل الممسك الذى حبس نفسه ودنسها ودساها بالشح والإمساك ، والتحبيب والترغيب فى مشهد المنفق المتصدق الذى شرح صدره بالبذل والعطاء وزكى نفسه بالصدقة فوُقى شر شحها فأصبح من المفلحين .

---

(١) ديوان القطامى ص ٢٠٥ – تحقيق د / محمود الربيعى – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١ م .

(٢) أسرار البلاغة ص ١٣٩ .

(٣) ينظر : أدب النديم – محمود بن حسين (كشاجم) ص ٢٠ – المطبعة الأميرية – بولاق ١٢٩٨ هـ .

(٤) التشبيه المتعدد الملفوف هو : ما أتى فيه بالمشبهين ثم بالمشبه بهما . (بغية الإيضاح ٤٢٨ – مكتبة الآداب – الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م) .

فالمشبهان فى الحديث هما : المنفق والبخيل ، والمشبه بهما هما " رجلين عليهما جبتان ... " وقد ذكر أهل العلم أن التثنية والجمع فى المتفق كالعطف فى المختلف (ينظر : بغية الإيضاح ص ٤٢٨) .

والترغيب والترهيب من وسائل توجيه الناس إلى المقاصد الشرعية فى بيان الوحى قرآنًا وسنة .

وقد بين الحق سبحانه حال الإنسان مع نفسه حين يزكيها أو يدسيها فقال سبحانه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (١) .

فالتقوى وأعمال البر ، ومنها الصدقة تبسط النفس وتشرح الصدر بحيث يجد الإنسان فى نفسه اتساعًا وبسطًا عما كان عليه قبل ذلك ... ، والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها بحيث يجد البخيل فى نفسه أنه ضيق (٢) .

واضح أن البيان القرآنى ارتكز فى الآية على الأسلوب التقريرى الذى هو " فى حاجة إلى صورة بيانية جامعة تزيده إيضاحًا وتأثيرًا ، كى يتأصل فى النفوس تأصلاً تمليه الروعة البيانية " (٣) . وهذا ما بينه النبى ﷺ فى الحديث الصحيح الذى بين أيدينا ، ومن هنا كانت السنة بيانًا للقرآن وتبيينًا لمقاصده ، وتفصيلاً لإشاراته المجملة ، وتصويرًا لحقائقه ومعانيه حتى تبدو أكثر جلاء ووضوحًا ، فتعتنقها القلوب ، وتزكو بها النفوس ، وتسلك مسالك الهدى والرحمة التى هى غاية الرسالة ، وغاية بيان الوحى قرآنًا وسنة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٤) ، ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الشمس : الآيتان ٩ ، ١٠ .

(٢) ينظر : الزهد والورع والعبادة لابن تيمية ١ / ٦٢ – ٦٤ – مكتبة المنار – الأردن – الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ .

(٣) البيان النبوى – د / محمد رجب البيومى ص ٢٣٢ – دار الوفاء – الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .

(٤) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٣٨ .

أترى تصويرًا رائعًا للمتناقضين من الكرماء والبخلاء يبلغ موضع هذا التصوير الحى ، فى التمثيل النبوى المبين ؟ .

التعبير عن الخبر بالتمثيل :

وحقيقة المعنى فى الحديث تعود إلى الإخبار عن أن المنفق إذا همَّ بالنفقة اتسع لذلك صدره ، وطاوعته يداه فامتد بالعطاء والبذل ، والبخيل يضيق صدره وتنقبض يداه عن الإنفاق فى المعروف [(١)] .

فأصل المعنى خبر قصد به الترغيب فى الإنفاق والتنفير من البخل وتفضيل المنفق على البخيل ، وقد عدل البيان النبوى عن الأسلوب الخبرى التقريرى إلى أسلوب التمثيل لما له من الأثر البالغ فى رفع قدر المعانى ، ومضاعفة قواها فى تحريك النفوس لها .

وكم كان الإمام عبد القاهر رائعًا وبارعًا حين وصف الأثر الدقيق والبالغ للتمثيل فى المعنى نفسه ، وفى نفس المتلقى لهذا المعنى المعبر عنه بأسلوب التمثيل !

يقول – رحمه الله – : " واعلم أن مما اتفق عليه العقلاء أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى وأبرزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة ، صبابة وكلفًا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفًا " [(٢)] .

---

(١) ينظر : شرح السنة للبغوى – باب ما يكره من إمساك المال ، وما يؤمر به فى الإنفاق ٦/ ١٥٩ – حديث رقم (١٦٦٠) – تحقيق / شعيب الأرناؤوط – المكتب الإسلامى – دمشق – بيروت ١٤٠٣ هـ .

(٢) أسرار البلاغة ص ١١٥ .

فبالتمثيل تحسن المعانى وتشتهر وتعرف كأنها النار فى اليفاع ، وتصبح ذوات مناقب وشرف تعلو به على نظرائها ، وتتميز به عن ضربائها " .

وصور التمثيل تنفذ إلى أقاصى الأفئدة ، وتداخل سرائر القلوب ، ويكون لها رنين فى أقاصيها ، وتحرك ما قر فى قرار النفوس ، وتستثيره وتعطفه نحو المعنى [١] .

توجيه بأبلغ أسلوب :

فالنبىﷺ حريص على توجيه أمته وهدايتهم لما ينفعهم، وتحذيرهم مما يضرهم ، ومن ثم رغبهم فى الإنفاق ، وحببه إلى نفوسهم ، ونفرهم من الشح والبخل ، وكرهه إلى نفوسهم ، وذلك من خلال تصوير حال كل من المنفق والبخيل ، وإبراز أثر كل من الإنفاق أو البخل على نفس صاحبه ، بأفصح عبارة وأبلغ أسلوب ينقل المعانى المعقولة من العلم بالعقل إلى العلم بالمشاهدة .

ومعلوم أن أنس النفس موقوف على أن تخرجها من خفى إلى جلى ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها فى الشىء تعلمها إياه إلى شىء آخر هى بشأنه أعلم ، وثقتها به فى المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ؛ لأن العلم المستفاد من طرق الحواس ، أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة ، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام [٢] .

وهذا لا ينافى ثقة الصحابة ويقينهم بصدق الخبر ، وعلمهم الراسخ بثواب الإنفاق ونفعه لصاحبه ، وعاقبة البخل وضرّه على صاحبه ، فى الدنيا والآخرة .

---

(١) ينظر : مدخل إلى كتابى عبد القاهر ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ .

(٢) أسرار البلاغة ص ١٢١ .

فالمعنى الذى جاء التمثيل فى عقبه ليبرزه ويصوره ليس غريبًا بديعًا يحتاج إلى تقريره وإقامة الحجة عليه ، كيف وهو مثبوت فى كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبىﷺ ؟، ولكننا نعلم أن المشاهدة تؤثر فى النفوس مع العلم بصدق الخبر ، كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام فى قوله : ﴿ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ (١) .

التشويق إلى المعنى بالتمثيل :

وفى استهلال الحديث بقوله ﷺ : " مثل البخيل والمنفق " تشويق وإثارة لنفوس المتلقين ، يهيئ لتلقى المعنى واستقراره فى الوجدان ، فى مقام التربية والتوجيه بضرب الأمثال .

وأهل العلم على أن المعانى حينما ينبه إليها ويهيئ المخاطب لتلقيها ، فإنها تستقر فى وجدانه ، وترسخ فى فؤاده ، وذلك إنما يكون فى الأمور المهمة التى يحرص المتكلم على إفهام المخاطب إياها وتثبيتها وترسيخها فى وجدانه .

والتنبيه للمعنى والتشويق له يسلك فى الكلام وسائل متنوعة منها:الاستفهام ، والإيضاح بعد الإبهام ، وأدوات التنبيه ، والقسم ، والنفى ، والشرط ، والدعاء ، والتقديم ، والقصص ، والتمثيل ... إلخ .

وقد كان للبيان النبوى – الذى بلغ الذروة من البيان البشرى – النصيب الأوفر من هذه الوسائل المشوقة للمعنى ، والمهيئة قلوب المتلقين إلى الإصغاء والتلقى فى مقامات متعددة ، لعل أبرزها مقام التربية والتوجيه بضرب الأمثال التى تمكن المعانى فى النفوس وتقرها فى القلوب ، عندما تقف عليها بعد أن تكون قد نبهت بالمثل وهيئت للتلقى (٢) .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٦٠ .

(٢) ينظر : التشويق فى الحديث النبوى : طرقه وأغراضه – د / بسيونى عبد الفتاح فيود ص ٥ ، ٧ ، ١٢٣ – مطبعة الحسين بالقاهرة – الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

والمثل هو الصفة العجيبة والحال الغريبة ، وعندما يبدأ ﷺ بقوله : " مثل البخيل والمنفق " تتطلع النفوس على مثل كل منهما ، وتنتظر إخبار النبىﷺ بمثليهما ، ويأتى عندئذ قوله " كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد " ، ثم إيضاحه لحال كل منهما بقوله : (فأما المنفق ...) إلخ ، فتقر هذه المعانى فى النفوس ويشتد الحرص على اختيار الإنفاق والتصدق والبعد عن الشح والبخل ، حيث وقعت النفوس – بعد أن هيئت ونبهت – على صورة محسوسة مشاهدة لمنافع الإنفاق ومضار البخل ، وهذا من شأنه أن يدعو لاختيار الأول والنفور من الثانى ؛ لأن النفس حريصة على اختيار ما ينفع واجتناب ما يضر [(١)] .

والبخيل فعيل بمعنى فاعل ، فهو اسم فاعل ، ويجمع على بخلاء ، واصطفاء التعبير به لإفادة ثبوت صفة البخل واستمرارها فيه .

فالبخيل : الذى يكثر منه البخل ، كالرحيم ، والراحم [(٢)] .

والمنفق : مفعل اسم فاعل من " أنفق " والجمع : منفقون .

و" أل " فى البخيل والمنفق : للجنس ، والمعنى أى بخيل ، وأى منفق ، فالمقصود تصوير نموذجين من الناس وبيان موقفهما من الإنفاق وعدمه ، ليدفع الأنفس إلى التصدق والبذل ابتغاء مرضاة الله تعالى عن طريق هذا المثل التصويرى الذى يظل مثالاً حيًّا للاقتداء ، ونبراسًا ونورًا للاهتداء ، تنتفع به الأمة فى حاضرها ومستقبلها .

---

(١) ينظر : التشويق فى الحديث النبوى ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) بخل : ضن بما عنده ، ولم يَجُد . المفردات ص ٣٨ .

أثر القرآن الكريم فى بيان النبوة :

وقد ذم القرآن الكريم البخل فى مواطن متعددة ، كما حث على الإنفاق ورغب فيه فى مواضع كثيرة ، أبرزها ما عبر عنه البيان العلى بأسلوب التمثيل ، وذلك فى أربعة مواضع ، ركزت على تبيان فضل الإنفاق فى سبيل الله ومضاعفة الأجر عليه ، وكشف خيبة أمل المرائى فى الإنفاق وحسرة الذين كفروا على ما أنفقوا فى الدنيا حين لا يجدون منه شيئًا يدفع عنهم عذاب الله تعالى ، فالبيان العلى عرض لنا ثلاثة نماذج من الذين ينفقون أموالهم : نموذج المؤمنين الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته وتثبيتًا من أنفسهم ، ونموذج المرائين بالإنفاق المانِّين به ، ونموذج الذين كفروا وما ينفقون من أموالهم فى الحياة الدنيا .

وقد صورها البيان القرآنى ووضحها بأربع صور محسوسة يراها الناس ويشاهدونها :

– صورة الحبة التى بذرت فى الأرض فأنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة منها مائة حبة : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [(١)] وهذا مثال للتكاثر القائم على الرعاية والعناية من الله تعالى ، وممن بذر الحب وتعهده ، وقد بين هذا المعنى وأكده حديث النبى ﷺ : " إن الله يتقبل صدقة أحدكم ويربيها كما يربى أحدكم فلوه حتى تصير مثل جبل أحد " [(٢)] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦١ .

(٢) رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ من تصدق بفدر تمرة من كسب طيب وَلاَ يَقْبَلُ الله إِلاَّ الطَّيِّبَ فَإِنَّ الله يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كما يُرَبِّي أَحَدُكمْ فُلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ " الجامع الصحيح ١ / ٤٣٥ ، وفتح البارى ٣ / ٣٥٤ ، وعمدة القارى ٧ / ١٩٩ .

وبين الحبة التى تنبت وإنفاق المؤمن فى سبيل الله تناغ واضح يتجلى فى طيب الأصل والمنبت ، وصلاح العمل ، وحسن الإخلاص ، وتعهد المولى عز وجل برعاية كليهما حتى ينمو ويتكاثر .

وكذا صورة الجنة التى أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين وتضاعف نتاجها : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَاضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١) وقد ضربهما مثلاً للمؤمن المنفق فى سبيل الله وابتغاء مرضاته .

وصورة الحجر الصلد الذى يعلوه التراب ولا ينتفع بالوابل النازل عليه ، فلا يحتفظ بالماء ولا ينبت شيئًا لينتفع به : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) وقد ضربه مثلاً للذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، حيث يذهب إنفاقه أدراج الرياح ولا يعود عليه بفائدة ؛ لخلو عمله من صدق الإيمان ، وحسن الإخلاص .

– وصورة ريح فيها صرّ قد أتت على زرع قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وقضت عليه فلم يبق لهم منه شىء ينفعهم ، وامتلأت نفوسهم حسرة وحزنًا : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٦٤ .

فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [١] وقد ضربه مثلاً لما ينفقه الذين كفروا فى الحياة الدنيا ويتوسمون فيه النفع عند الله ، ولكنه يذهب سدى ولا يبقى منه شىء ينفعهم أو يغنى عنهم من عذاب الله تعالى شيئًا .

وذلك لخلو هذا العمل من الإيمان ، والإخلاص اللذين هما شرط صحة الأعمال وقبولها عند الله تعالى .

وجميع أمثلة القرآن السابقة تركز على إبراز أهمية صدق الإيمان وحسن الإخلاص فى الإنفاق وعلى تصوير مضاعفة أجر الصدقة وثواب الإنفاق فى سبيل الله تعالى .

وقد استقرت تلك المعانى العالية والصور المعبرة الكاشفة فى قلب النبى ﷺ ووعاها عقله ، وكان لها بالغ الأثر فى بيانه المبين وأسلوبه البليغ الذى فاق كل أسلوب بشرى ؛ لأنه يستضئ بنور الوحى ، ويجرى على لسان أفصح العرب على الإطلاق ، فقد كان ﷺ يعلم لغات العرب على اختلاف مواطنهم واشتراك اللغات وانفرادها بينهم ، يعلم كل ذلك على حقه كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها وتبادره بحقائقها فيخاطب كل قوم بلحنهم ، وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابًا ، وأشدهم لفظًا ، وأبينهم عبارة ، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب [٢] .

فمن معين الأمثال القرآنية يغترف النبى ﷺ ويستقى أمثاله فيجلى لنا هنا نموذجين ، ويضرب لكل منهما مثلاً يوضحه ويزيد فى الكشف عن حقيقته : " مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد " .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٧ .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ص ٣١٥ – ٣١٨ – المكتبة التوفيقية بالقاهرة .

وقوله " كمثل رجلين " بزيادة الكاف أو " مثل " [١] لتأكيد التشابه وتقويته ، ولذلك كانت هذه الرواية أظهر فى الدلالة على قوة الشبه من رواية " مثل البخيل المتصدق مثل رجلين " بغير الكاف ؛ لأن الكاف أكدت التشابه ، وزادت فى معنى التشبيه زيادة خلت منها الرواية الأخرى .

وتكرار كلمة (مثل) فى الحديث للتأكيد ، والإشارة إلى أن طرفى الصورة التشبيهية يلتقيان فى الشبه ، ولا يمكن صهرهما واتفاقهما فى جميع الوجوه [٢] ، ومن ثم جاءت التفصيلات المحددة لصورة المشبه به ، والكاشفة عن وجه الشبه ، وفى ذلك إتمام لعناصر الصورة ، وفيه أيضًا تحويل المقارنة بين الطرفين إلى الدمج والالتقاء فى الشبه ، فنحن لم نعد نتصور حركة الرجل لابس الدرع السابغة ، أو الرجل لابس الدرع الملتصقة القابضة ، بل صرنا نسكب هذه الحركة على نفسية كل من المنفق ، والبخيل .

وهذه الصيغة (مثل – كمثل) تسترعى الانتباه بكثرتها الكاثرة فى صورة الحديث النبوى التشبيهية ، وهى عبارة عن وسيلة أو منبه يستحوذ على الأذهان معلنًا ومنوهًا بأن ثمة لوحة وصورة ستكون بديلاً عن الكلام الخبرى التقريرى ، ويعنى هذا

---

(١) اختلف العلماء فى الزائد منهما فى هذا التركيب ، هل هو " الكاف " أو " مثل " ، وأكثر العلماء على زيادة الكاف ، ولذلك قدروا فى قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [سورة غافر : من الآية ١١] أى : ليس مثله شيء ، والكاف زائدة للتأكيد ، قال صاحب (مغنى اللبيب) والقول بزيادة الحروف أولى من القول بزيادة الاسم . ومما يقوى القول بزيادة الكاف ما جاء فى رواية عبد الله بن طاوس عند البخارى " مثل البخيل والمتصدق مثل رجلين " بحذف الكاف . (مغنى اللبيب ١ / ١٥٣ – ط الحلبى) .

(٢) ذكر ابن رشيق أن التشبيه سواء كان بالكاف أو كأن أو غيرهما لا يكون من جميع الجهات ، بل من جهة أو جهات كثيرة . (العمدة ١ / ٢٣٧ – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – دار الطلائع ٢٠٠٦ م .

تفصيلاً فى صورة المشبه به لتكتمل الصورة الكلية المعبرة عن المعنى المقصود ، كما أن الأحاديث التى ترد فيها هذه الصيغة طويلة نسبيًّا ، وذلك لاستيفاء عناصر الصورة التشبيهية [١] .

وجملة " عليهما جبتان [٢] من حديد " صفة للمشبه به " رجلين " ، والتعبير بحرف الاستعلاء " على " لإفادة تمكن الجبتين منهما .وفى رواية عند مسلم [٣] : (جنتان) بضم الجيم وتشديد النون ، تثنية جُنة : وهو كل ما وقى الإنسان وأجنه وأحصنه ، والمراد به هنا : الدرع ، وقيل الجنة فى الأصل : الحصن ، وسميت بها الدرع ؛ لأنها تجن صاحبها ، أى تحصنه [٤] .

والجبَّتان : بضم الجيم وتشديد الباب الموحدة تثنية جُبَّة : وهى ضرب من مقطعات الثياب تلبس ، وجمعها جُبَب وجِباب .

والجبة أيضًا : من أسماء الدرع ، وجمعها جُبَب [٥] ، قال الراعى : من الوافر

لَنـــــا جُبَـــــبٌ وَأَرمـــــاحٌ طِـــــوالٌ

بِهِـــــنَّ نُمـــــارِسُ الحَـــــربَ الطـــــوالا

---

(١) ينظر : الصورة الفنية فى الحديث النبوى الشريف – د / أحمد ياسوف ص ١٥٢ ، ١٥٣ – ط دار المكتبى – دمشق – الطبعة الثانية ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م .

(٢) كذا فى هذه الرواية بضم الجيم بعدها موحدة ، ومن رواه فيها بالنون فقد صحف . (فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٣٠٦/٣ – تحقيق / محب الدين الخطيب – المطبعة السلفية – الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ) .

(٣) صحيح مسلم ٣ / ٨٩ – باب مثل المنفق والبخيل – حديث رقم (٢٤٠٧) .

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح – على بن سلطان محمد القارى ٦ / ٢٨٦ – دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة ..

(٥) لسان العرب ، مادة (جبب) .

وبالتأمل ندرك أن لكل رواية مدلولها ومغزاها الذى يسهم فى اكتمال صورة المعنى ، فرواية القوة تؤدى معنى الوقاية والتحصن والمنعة ، ورواية الباء تفيد معنى التغطية والستر .

فالجبة أو الجنة كناية عن نعم الله تعالى ورزقه عليهما ، ولذا جمعهما فى لفظ التثنية ، فالمنفق كلما أنفق اتسعت عليه النعم وسبقت حتى تستره سترًا كاملاً ، والبخيل كلما أراد أن ينفق منعه حرصه وشحه وخوف النقص ، فهو بمنعه ويطلب أن يزيد ما عنده من المال وأن تتسع عليه النعم فلا تتسع ، فهى لا تزداد إلا ضيقًا ، ولا تستر منه شيئًا يروم ستره [(١)] .

ويمكن أن تكون استعارة تصريحية أصلية ، حيث شبه ﷺ نعم الله ورزقه بالجبة أو الجنة .

وفى التقييد بقوله " من حديد " إعلام بأن القبض والشدة جبلة الإنسان [(٢)] ، وبأن حب المال جبلة فى النفس فهو منها بمنـــزلة مكينة لا تسمح له بالانفلات [(٣)] .

فاصطفاء التعبير بقوله " جبتان من حديد " للدلالة على حماية الإنسان ووقايته من الخطر ، ولكن الجبة تتخذ هنا دلالة واسعة ؛ لأنها فى الأصل لا تقى الجسد من النار ، فالتصدق حجاب ذهنى روحانى يصون الجسد من نيران جهنم ، والحديد معدن له قساوته وضراوته [(٤)] فى الصد والوقاية من المخاطر ، وبذا تتجلى الصورة الذهنية القلبية فى قالب حسى يدركه المتلقى ويقف على حقيقته .

---

(١) ينظر : الترغيب والترهيب للمنذرى – حديث رقم (١٣٥٨) ٢ / ٢٥ – تحقيق / إبراهيم شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٧ هـــ .

(٢) عمدة القارى ١٣ / ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٣) البيان النبوى ص ٢٣٦ .

(٤) ينظر : الصورة الفنية فى الحديث النبوى الشريف ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

وقوله " من ثدييهما إلى تراقيهما " [١] قيد فى المشبه به ، قصد من التعبير به تحديد مكان الجبتين وموضعهما من الجسد ، وذلك تنبيهًا على شدة اعتلاق هذا المكان بالصدقة والإنفاق عطاءً ومنعًا حيث يشتمل على الصدر واليدين ، فالمنفق ينشرح صدره وتنطلق يداه بالإنفاق فتتسع جبته عليه حتى تستره وتغطيه وتمحو أثره ، والبخيل ينقبض صدره وتضيق نفسه وتغل يداه عن الإنفاق ، فتزيده الجبة ضيقًا ولا تبرح ثدييه فيبقى مكشوفًا مفتضحًا فى الدنيا والآخرة .

وفى رواية عند أحمد " من لدن ثديهما " بزيادة " لدن " لإفادة الإبلاغ فى تحديد موضع الجبتين ، وبيان قربهما من الثديين .

قال صاحب اللسان : " لدن : ظرف مكان بمعنى " عند " ، إلا أنه أقرب مكانًا من " عند " وأخص منه ، فإن عند تقع فى المكان وغيره ، تقول : لى عند فلان مال ، أى فى ذمته ، ولا يقال ذلك فى لدن " [٢] ، وبذا تتكامل الروايتان فى إبراز المعنى المقصود .

---

(١) ثديهما : بضم الثاء على الجمع وبفتحها على التثنية ، والمفرد : ثدى . وتراقيهما : جمع ترقوة بضم المثناه والقاف : هى العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق . (فتح البارى ١٠ / ٢٦٧ ، ٢٦٨) .

(٢) لسان العرب (لدن) .

بلاغة التفصيل فى قوله ﷺ (فأما المنفق ...)

من السمات البارزة فى هذا الحديث اعتماد النبى ﷺ على التفصيل والبيان بعد الإجمال والإبهام ، حيث أجمل القول فى وصف حال كل من البخيل والمنفق بقوله ﷺ " مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما " .

ثم فصل الصورة وبينها بقوله " فأما المنفق ... " الحديث ، وذلك حتى يتمكن المعنى فى نفوس المتلقين فضل تمكن ، وتكمل لذة العلم به فى النفوس التى استشعرته إجمالاً فتشوقت لمعرفته تفصيلاً ، فإذا ما تحقق لها ذلك كان ألذ وأدعى لإمالتها إلى ما يلقيه المتكلم ﷺ .

والبيان بعد الإبهام من صور الإطناب فى الكلام ، التى تجعل السامع يدرك المعنى فى صورتين مختلفتين إحداهما على جهة الإجمال أو الإبهام ، والأخرى على جهة التفصيل والبيان ، فيتحقق عند السامع إدراكان أو علمان .

كما تمكن المعنى الموضح بعد إبهامه فى نفس السامع فضل تمكن ، وذلك عند اقتضاء المقام ذلك التمكن ، لكون المعنى ينبغى أن يملأ به القلب لرغبة أو لرهبة ، أو أن يحفظ لتعظيم وعدم استهزاء أو عمل به أو نحو ذلك .

وإنما كان فى الإيضاح بعد الإبهام فضل التمكن لأن الإشعار به إجمالاً يقتضى التشوق له ، والشىء إذا تحقق بعد التشوق يقع فى النفس فضل وقوع ويتمكن أى تمكن ، وهذا مقتضى الجبلة ومركوز فى الطباع .

وبالتفصيل بعد الإجمال أيضًا تكمل لذة العلم بالمعنى ، لأن الإجمال يشعر به فيقع فى النفس تشوقًا وطلبًا له ، فإذا نيل بالتشوق والشوق كان ألذ بخلاف ما إذا نيل بلا شوق وطلب [1] .

---

(١) مواهب الفتاح ٣ / ٢١٠ .

ولما كان النبى ﷺ حريصًا على تمكين المعنى فى النفوس ، وعلى أن يملأ به القلوب ويستميلها فتقبل راغبة على الإنفاق والصدقة ، وتنفر راهبة من الشح والبخل ، فقد سلك طريق التفصيل والبيان بعد الإجمال والإبهام ، ليحقق كل هذه المعانى التى تستلزم الاهتمام بالكلام والتأكيد له .

فمن المعلوم أن من لازم سوق الكلام لعلمين الاهتمام به المستلزم لتأكيد معناه وكمال الرغبة فى تحقق مقصوده ، وكذا سوقه للتمكن واللذة من لازمه الاهتمام المستلزم لكمال الرغبة فى الاستجابة وتحقيق المعنى المراد ، والتأكيد وكمال الرغبة مناسبان فى مقام التربية والتوجيه بالترغيب والترهيب كما فى هذا الحديث الشريف ، لأنه ببيان حال كل من المنفق والبخيل وما يتبع ذلك من الترغيب والتحبيب فى حال المنفق ، والترهيب والتنفير من حال البخيل ، يتمكن السامع والمتلقى من الامتثال والاستجابة على أكمل وجه كما لا يخفى [١] .

التشويق بالإيضاح بعد الإبهام :

وتتطلع النفس دائمًا إلى إيضاح المبهم وإلى تفصيل المجمل ، فإذا بدئ الكلام بإبهام أو إجمال ترقبت النفس بيانه واشتاقت إلى تفصيله ، فإذا ما جاء الإيضاح بعدئذ أو التفصيل صادف نفسًا مهيأة مترقبة فيتمكن منها ويثبت .

والإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال من طرق التشويق إلى المعنى فى الحديث النبوى وتهيئة المخاطب لتلقيه ، والغرض منه أن يتأكد المعنى لدى السامع وأن يقر بداخله ؛ لأنه من الأمور المهمة التى تحتاج إلى تأكيد وتثبيت ليشتد الحرص على امتثالها وإجابتها [٢] .

---

(١) ينظر : مواهب الفتاح ٣ / ٢١٢ .

(٢) التشويق فى الحديث النبوى ص ٥٦ .

ومن ذلك ما جاء عن عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله " [١] .

فقد شوق إلى معرفة هذين العينين ، حيث أجمل أول الحديث وأبهم صفة العينين " عينان لا تمسهما النار " فتطلعت النفوس إلى الإيضاح الذى جاء فى قوله " عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله " [٢] .

وهذا يشعر بعظم خشية الله ومراقبته والخوف منه ... كما يشعر بفضل الرباط فى سبيل الله ، ومن أجل ذلك كان حرصه ﷺ على التمكين لهذين المعنيين فى النفوس بالإيضاح من الإبهام [٣] .

فقوله ﷺ : " فأما المنفق فلا ينفق إلا سبقت " شروع فى البيان والتفصيل لتكتمل صورة التمثيل وتتجلى فى أتم وجه وأوفاه .

وقد جاءت فاء الربط فى قوله " فأما " لتربط البيان بالمبيَّن ، ولتنبئ عن شدة تماسك الجمل وقوة ترابط أجزاء الحديث ، والقائم بناؤه على جملة واحدة .

و" أما " حرف شرط وتفصيل وتوكيد [٤] .

---

(١) رواه الترمذى فى السنن – كتاب فضائل الجهاد – باب ما جاء فى فضل الحرس فى سبيل الله – حديث رقم (١٦٣٩) – تحقيق أحمد محمد شاكر – دار إحياء التراث العربى – بيروت ..

(٢) ينظر : التشويق فى الحديث النبوى ص ٥٧ .

(٣) ينظر : التشويق فى الحديث النبوى ص ٥٨ .

(٤) أما أنها شرط فبدليل لزوم الفاء بعدها ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ البقرة ٢٦ ، قال الشيخ الأمير : التحقيق أنها نائبة عن الشرط والإضافة تأتى أدنى ملابسة ، وقال الزمخشرى : و (أما) حرف فيه معنى الشرط ولذلك يجاب بالفاء (يعنى فاء الجزاء) . وأما التفصيل فهو غالب أحوالها ، وقد تأتى لغير التفصيل نحو : وأما زيد فمنطلق ، وأما التوكيد فقل من ذكره ، ولم ار من أحكم شرحه غير الزمخشرى . (ينظر : مغنى اللبيب لابن هشام وحاشية الأمير عليه ص ٥٣ ، ٥٤ – ط الحلبى ، والكشاف للزمخشرى ١ / ٢٦٦ – ط دار الفكر .

وفائدته فى الكلام أن يعطيه فضل توكيد ، وزيادة تقرير وتثبيت ، تقول : زيد ذاهب ، فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب ، وأنه بصدد الذهاب ، وأنه منه عزيمة ، قلت : أما زيد فذاهب ، ولذلك قال سيبويه فى تفسيره : مهما يكن من شىء فزيد ذاهب ، وهذا التفسير مدل لفائدتين : بيان كونه توكيدًا ، وأنه فى معنى الشرط [١] .

ففى إيراد الجملتين مصدرتين به : " فأما المنفق ... وأما البخيل " دون أن يقول ، فالمنفق ... والبخيل ، إحماد عظيم لأمر المنفق ، واعتداد بعمله فى الإنفاق والصدقة ، وترغيب فيه ، ونعى على البخيل الشحيح الممسك ماله ، وذم وتحقير لفعله ، وتنفير منه .

ونلاحظ تقديم ذكر البخيل على المنفق فى صدر الحديث ، وذلك لزيادة الإثارة والتشويق الذى ينبئ عنه استعمال كلمة (مثل) ، بينما أخر ذكره هنا فى جملتى التفصيل جاريًا بذلك على أسلوب العكس والتبديل [٢] ، وهو من ألوان البديع المعنوى ، وهذا يعنى كونه مقصودًا لمعنى بديع ، ونكتة .

ونكتته هنا هى زيادة الإثارة والتشويق المستفاد من ضرب المثل ، وإيراد الكلام مجملاً فى صدر الحديث ، ثم بيان أن المقصود من التمثيل فى الحديث توجيه الناس بترغيبهم فى الإنفاق والصدقة وتصوير عظيم أثرها على صاحبها ، وبترهيبهم وتنفيرهم من الشح والبخل ، وتصوير شدة ضرره على صاحبه ، وبذا تنفر منه

---

(١) ينظر : كتاب سيبويه ٤ / ٢٣٥ – تحقيق / عبد السلام هارون – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، والكشاف للزمخشرى ١ / ٢٦ – ط دار الفكر .

(٢) وهو أن يقدَّم فى الكلام جزءٌ ثم يؤخر ، أى على ما قُدِّم عليه ، ويقع فى الكلام على وجوه . (ينظر : الإيضاح مع البغية ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ – ط مكتبة الآداب ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .

النفوس وتقبل على الطاعات وفعل الخيرات ، فتلك هى الغاية العظمى فى الحديث ، ومن ثم بدأ فى التفصيل بوصف حال المنفق ، وأخر وصف حال البخيل .

وقوله " فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده " جواب (لما) ، والفاء فيه للجزاء ، والمعنى : أن المنفق كلما أنفق شيئًا امتدت جبته وانبسطت وغطت جسده واتسعت عليه .

وفى التعبير أسلوب قصر بطريق النفى والاستثناء فى قوله (فلا ينفق إلا سبغت) ، وهو من قصر الموصوف " ينفق " على صفة " سبغت " قصرًا ادعائيًّا ، قصد منه الإبلاغ فى بيان شدة الارتباط ووثوق الصلة بين إنفاق المنفق ، وإسباغ الدرع على جلده ، فبمجرد حصول الإنفاق بأى شىء قل أو كثر تنبسط الدرع وتتسع وتمتد على جسد المنفق حتى تغطيه ، وتطول فتمحو أثره .

واضح أن فى العبارة أيضًا تصويرًا كنائيًّا ، فى قوله " سبغت أو وفرت على جلده " ، إذ المقصود من التعبير به انشراح الصدر للصدقة والتوسع فى الإنفاق ، وستر الخطايا وتغطيتها كما يُغطى الثوب جميع البدن .

والتعبير بالفعل المضارع فى قوله " فلا ينفق " يصور حال المنفق فى استمرار تجدد حدوث الإنفاق منه ، مما ينبئ عن شدة حرصه على الإنفاق ، وانشراح صدره وتعلقه بالتصدق .

وفى حذف المفعول به إشارة إلى معنى العموم فيه وأن الصدقة تتحقق بأى شىء قل أو كثر .

والتقدير : فلا ينفق شيئًا ، وقد صرحت به بعض الروايات [(١)] ، والمقصود من تنكيره التعميم كذلك .

---

(١) فى البخارى – باب الإشارة فى الطلاقة والأمور ٥ / ٢٠٣٠ – حديث رقم (٤٩٩٣) .

وقوله " سبغت " مأخوذ من : سبغ الشيء يَسْبَغ سُبُوغًا : طال إلى الأرض واتسع ... وسبغت الدرع ، وكل شيء طال إلى الأرض ، فهو سابغ ، وقد أسبغ فلان ثوبه : أى أوسعه .

وإسباغ الوضوء : المبالغة فيه وإتمامه ، وأسبغ الله عليه النعمة : أكملها وأتمها ووسعها [١] .

وقوله " أو وفرت " شك من الراوى ، ينبئ عن شدة حرص الصحابة وتحريهم الدقة فى الرواية عن رسول الله ﷺ ، وهو بتخفيف الفاء من الوفور .

ووقع فى رواية الحسن بن مسلم " انبسطت " وفى رواية الأعرج " اتسعت عليه " ، وكلها متقاربة [٢] ، وتعود إلى معنى فى " سبغت " .

وقوله " على جلده " متعلق بـــ " سبغت أو وفرت " لتقوية المعنى وتوكيده .

وقوله " حتى تخفى بنانه وتعفو أثره " بيان للغاية المرجوة من سبوغ الدرع وسعتها وتمامها .

أى : حتى تستر أصابعه ، وفى رواية " حتى تجِنّ " بكسر الجيم وتشديد النون ، وهى بمعنى تخفى .

وقد وقع فى رواية الحسن بن مسلم " حتى تغشى أنامله " أى تغطى أصابعه ، عبر بالأنامل وأراد الأصابع ، على طريق المجاز المرسل لعلاقة الجزئية ، وكلها متقاربة فى المعنى كما لا يخفى .

وقوله " وتعفو أثره " بالنصب ، أى تستر أثره ، يقال : عفا الشيء وعفوته أنا ، لازم ومتعد .

---

(١) لسان العرب مادة (سبغ) .

(٢) ينظر : فتح البارى لابن حجر ٣ / ٣٠٦ .

ويقال : عفت الدار ، إذا غطاها التراب .

والمعنى : أن الصدقة تستر خطاياه كما يغطى الثوب الذى يجر على الأرض اثر صاحبه إذا مشى بمرور الذيل عليه [١] .

ففى التعبير استعارة تمثيلية بتشبيه حال الصدقة فى سترها الخطايا ومحوها السيئات ، بالدرع أو الثوب الذى يجر على الأرض فيغطى أثر صاحبه حين يمشى ، ويمر الذيل على أثر إقدامه فيمحوه .

وقوله " وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها " عطف بالواو على الجملة السابقة قصد منه إشراكها لها فى التفصيل والبيان ، وبيان مقابلتها لها فى المعنى .

وأسلوب المقابلة يؤكد المعانى ويقررها عند المخاطب ، لأن الضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تتبين الأشياء ، وهو فى الحديث الشريف يستعمل لاستيعاب الحاكم للمتقابلات ، وذلك ظاهر الشأن فى التقرير ، أو يستعمل لتقابل الحكمين إظهارًا وإيضاحًا لكل من المقامين ترغيبًا بأحدهما ، وترهيبًا بالآخر ، وشرية الشر تؤكد خيرية الخير بالمفهوم ، فضلاً عن اقترانها بها فى الذكر ، كما فى هذا الحديث ، حيث عرى سوء صنيع البخيل وكشف عن ضيق صدره بالصدقة وسوء حاله بسبب ذلك ، وهذا يؤكد بدوره حسن صنيع المنفق وسعة صدره ، وحسن حاله .

وبذا يتبين لنا أن المطابقة أو المقابلة ليس مجرد تحسين الكلام فى حديثه ﷺ ، وإنما هو يؤدى أغراضًا أصيلة لا تؤدى دونه ، فالتحسين به حسن طبيعى غير مقصود لذاته [٢] .

---

(١) ينظر : فتح البارى لابن حجر ٣ / ٣٠٦ .

(٢) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية – للدكتور / كمال عز الدين ص ٢٣٩ – دار اقرأ – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

فالمطابقة –كما نرى – ليست حلية ولا سبيل تحسين فى رياض البيان النبوى ، إنها سبيل من سبل بناء المعنى وإحكامه فى متانة تجمع إليها دقة الوعى النابع من متانة النسيج وإحكام الحوك ، وليس مجرد أصباغ تلقى على ظاهر النسج عما قليل أو كثير يزول [(١)] .

فقوله " فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها " تجسيد لحال البخيل وحال نفسه فى ضيقها وشحها ، وحال يديه وانقباضهما عن الإنفاق فى وجوه الخير والمعروف .

والمراد : أن البخيل إذا حدث نفسه بالصدقة شحت نفسه فضاق صدره وانقبضت يداه .

وقد جعله الحديث كمثل رجل غلت يداه إلى عنقه كلما أراد أن يلبس درعه وصبها على رأسه اجتمعت فى عنقه ولزمت ترقوته ، فهو يحاول جاهدًا توسعتها ولكنها لا تتسع .

والحديث الشريف ناظر فى هذا المعنى إلى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾ [(٢)] ، حيث استعير لليد المقبوضة جملة عن الإنفاق المتصفة بالبخل الغَلّ إلى العنق ، واستعير لليد التى تستنفذ جميع ما عندها غاية البسط ، ضد الغل ، وكل هذا فى إنفاق الخير ، وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام [(٣)] .

---

(١) ينظر : التحبير – للدكتور / محمود توفيق ص ١٤٥ – مكتبة العمروسى بالقاهرة .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٢٩ .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٣ / ٤٦٣ – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

والمقصود من النهى فى الآية : ذم البخل والسرف ، أى لا تكن بخيلاً منوعا لا تعطى أحدًا شيئًا ... ولا تسرف فى الإنفاق فتعطى فوق طاقتك وتخرج أكثر من دخلك فتقعد ملومًا محسورًا .

وهذا من باب اللف والنشر ، أى : فتقعد إن بخلت ملومًا يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك ، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير ، وهو : الدابة التى قد عجزت عن السير فوقفت ضعفًا وعجزًا [(١)] .

فالآية كما نرى ركزت على ذم البخل والسرف منطوقًا ، وعلى مدح الإنفاق مفهومًا .

فجاء الحديث الشريف ليجلى صورة ما أفهمته الآية وليقرر ذم البخل الذى نهت عنه الآية .

وقد بين الحديث وفصل ما أجملته الآية وما أفهمته ، وزاد فى ذم البخل بأن صور حال البخيل مع نفسه فى ضيقها وشحها ، حيث يحدثها بالصدقة فتشح ويضيق صدره وتنقبض لذلك يداه .

واعتمد الحديث فى ذلك على أسلوب التمثيل الذى يعتمد هنا على إثارة تصورات متعددة فى ذهن المتلقى عن أثر ضيق صدر البخيل عليه ، فإذا همّ بصدقة لا يجد من نوازع نفسه وبواعثه ما يدفعه إلى الإنفاق ، فإما أن يتراجع أو لا يكون سمحًا بما ينفق ، فكان جزاؤه الضيق النابع من ضيق صدره الذى يوشك أن يختنق به .

ويستطيع المتأمل أن يدرك سر اعتماد التمثيل هنا على إثارة تصورات متعددة فى ذهن السامع والمتلقى ، وهو تمكين المقتضى التعليمى والتوجيهى فى نفسه ، فإذا

---

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ٣ / ٣٦ – المكتبة العصرية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

تأمل المسلم صورة المنفق حين تنبسط يداه بالإنفاق ، وكيف أن هذه الجنة اتسعت حتى سترت سائر جسده ، وفاضت حتى جعلت تتعقب أثره فتمحوه ، حبب إليه هذا المظهرُ الإنفاقَ .

وإذا تأمل صورة البخيل وجد فيها ما يدفعه دفعًا إلى أن ينأى بنفسه عن هذه الصورة المهينة بنتائجها التى يتوقاها المسلم الحق ، ومن ثم يأتى التشبيه وضرب المثل حجة عقلية تحمل المتلقى على الارتياح للإنفاق والنفور من البخل ببيان الأثر المترتب على كل منهما ، وتبنى فى العقل التصورات التى تحقق الغاية الإقناعية ، بإثارة التخييل ، الذى يضع الغاية التعليمية هدفًا أساسيًّا فيتحول باللغة إلى طاقة إقناعية تحقق التمكن للمقتضى التعليمى فى نفس المتلقى [(١)] .

وفى قوله " فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها " أسلوب قصر بطريق النفى والاستثناء قصر موصوف على صفة ، والغرض منه : تأكيد ذم البخل ، وبيان حال البخيل وهو ينازع نفسه الشحيحة التى تورث صدره ضيقًا وحرجًا ، وتقبض يديه عن الإنفاق .

وفى العبارة صورة حركية رائعة تجسد حال البخيل مع نفسه ، وتبين أثر ضيق صدره عليه .

وتأتى الحركة القوية السريعة فى التعبير بالفعل " جعل " كما فى رواية مسلم : " فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى أنامله ويعفو أثره ، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها ، قال أبو هريرة : فأنا رأيت رسول اللهﷺ يقول بإصبعه هكذا فى جيبه ، فلو رأيته يوسعها ولا توسع [(٢)] .

---

(١) ينظر : السياق وتوجيه دلالة النصب – د عيد بلبع ص ٦١٣ – ٦١٥ – الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م .

(٢) صحيح مسلم – باب المنفق والبخيل ٣ / ٨٩ – حديث رقم (٢٤٠٧) .

وحركة البخيل قوية تعبر عن الخناق النَّفْسى والنَّفَسى ، ولكنها حركة محدودة مقطوعة إذ تتقلص الجبة وتحس به يختنق لضيقها ، ودعم توضيح الصورة الإشارية هذا التمثيلَ ، إذ كان ﷺ يمثل عدم ستر الجبة للجسد بإصبعه حيث الجبة الثابتة ، والصحابة يدركون أهمية هذا التصوير ، لعلاقته الوشيجة بالحرب قبل الإسلام وبالجهاد بعد الإسلام ، فجاءت الصدقة تبعًا لهذا جهادًا من نوع آخر [١] .

وتأمل اصطفاء التعبير بقوله " لزقت كل حلقة مكانها " وهو المقصور عليه – وما فيه من تصوير لمعانى القبض والشح والكزازة مما لا تتسع لوصفه الصفحات ، وإذا كانت الحلقات الملتصقة من حديد فما بالك بثقلها وضيقها وأخذها بالمخانق والأوصال ؟ ! [٢] .

وفى رواية مسلم " انقبضت " وفى رواية همام " غاصت كل حلقة مكانها " وفى رواية سفيان عند مسلم " قلصت " ، وكذا فى رواية الحسن بن مسلم عند المصنف ، والمفاد واحد ، أى ضاقت غاية الضيق ، لكن رواية " لزقت " نظر فيها إلى صورة الضيق ، ورواية " قلصت " نظر فيها إلى سبب الضيق [٣] ، أى تضامت واجتمعت حتى لزقت وأخذت بالمخانق والأوصال .

وقوله " فهو يوسعها ولا تتسع " تفريع عن قوله " لزقت كل حلقة مكانها " ولذا عطف عليه بالفاء لبيان قوة ارتباطه به .

وهو يصور خيبة أمل البخيل وشدة حسرته ، وقوة اختناقه من ضيق الجبة عليه ، ولذلك صدر الجملة بضميره " فهو " وأسند إليه الفعل المضارع " يوسعها "

---

(١) ينظر : الصورة الفنية فى الحديث النبوى الشريف – د / أحمد ياسوف ص ١٥٥ .

(٢) ينظر : البيان النبوى – د / محمد رجب البيومى ص ٢٣٧ .

(٣) ينظر : فتح البارى ٣ / ٣٠٦ .

ليحكى محاولاته المتجددة واليائسة فى انفساح الجبة واتساعها عليه ، ولكنها لا تزداد عليه إلا استحكامًا ، وبذا يكون هذا التعبير مجسدًا لمشاعر البخيل وخيبة أمله ، ومؤكدًا لقوة ثقل الحلقات وضيقها عليه .

وقوله " ولا تتسع " عطف على الجملة السابقة ، وروى " فلا تتسع " بالفاء بدلاً من الواو فعلى رواية الواو تكون الجملة حالاً من ضمير الهاء فى " يوسعها " .

والمعنى : أن البخيل حينما تلتزق حلقات الدرع وتضيق عليه يحاول جاهدًا توسعتها ، والحال أنها لا تتسع أبدًا .

وعلى رواية الفاء (فلا تتسع) يكون نفى اتساعها مترتبًا بالفاء على محاولاته اليائسة ، فبمجرد همه بالمحاولة يشتد استحكامها عليه فلا تتسع أبدًا .

وتلتقى الروايتان فى معنى التيئيس والتهكم ، وقد جاء فى رواية الإمام أحمد : " فلا تزداد عليه إلا استحكامًا " [(١)] .

وبذلك يكون فى اختلاف الرواية إثراء للمعانى البلاغية ؛ لأن التنوع فى الأساليب يثرى المتلقى من خلال نظره فى تصرف البليغ فى أساليبه بما يتناسب مع طبيعة المخاطب وسياق الخطاب وموضوعه [(٢)] .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢ / ٢٥٦ – حديث رقم (٧٤٧٧) .

(٢) ينظر : مراجعات فى أصول الدرس البلاغى – د / محمد أبو موسى ص ٥٩ – مكتبة وهبة .

الخاتمة

وبعد تأملنا وتدبرنا للبلاغة النبوية فى هذا الحديث النبوى الشريف ، نستطيع التأكيد على النتائج الآتية :

أولاً : للبلاغة العربية أثرها البالغ فى إبراز المقاصد الشرعية فى بيان الوحى قرآنًا وسنة .

ثانياً : بنيت المعانى فى الحديث الشريف على جملة واحدة هى جملة المثل ، منها تناسلت الجمل وفيها تمازجت التراكيب وتناغت الكلمات والحروف حتى صار الحديث كله جملة واحدة ، وهذا هو النمط العالى فى الكلام .

ثالثاً : إبراز المعانى فى صورة التمثيل أوقع للقلب ، وأبلغ فى إلزام الحجة ، وأقوى وأعجب فى إبراز الحقائق المستورة .

رابعاً : المتخيل فى الأمثال النبوية هو ما يجرى فى خيال المتلقين من المعانى المتخيلة المستورة ، فالتخييل فى البيان النبوى يضع الغاية التعليمية هدفًا أساسيًّا فيتحول باللغة إلى طاقة إقناعية تحقق التمكن للمقتضى التعليمى فى نفس المتلقى .

خامساً : الحديث تصوير رائع لمتناقضين ، وبيان كاشف عن المقابلة بين موقفين متغايرين فى مقدمتهما ونتائجهما .

سادساً : المطابقة أو المقابلة فى حديث النبى ﷺ ليست مجرد تحسين للكلام ، وإنما هى تؤدى أغراضًا أصيلة لا تؤدى دونها .

سابعاً : للقرآن الكريم الأثر الأعظم فى بلاغة النبى ﷺ ، وخاصة ضرب الأمثال المصورة للمعانى والكاشفة عن حقيقتها .

ثامناً : اعتمد الحديث فى إثارة التشويق للمعانى على أساليب : ضرب المثل ، والبيان بعد الإبهام ، والتقديم ، فاجتمع على التشويق أكثر من أسلوب .

تاسعاً : اعتمد الحديث فى تأكيده للمعانى والأغراض على الوصف بالجملة ، وأسلوب القصر ، و " أما " التفصيلية .

عاشراً : تمازج فى الحديث التصوير بضرب المثل ، والتصوير بالألفاظ المصورة الموحية .

حادى عشر : لاختلاف الرواية أثره فى تكامل صورة المعانى ، وفى إثراء المعانى البلاغية فى الحديث .

وبعد ... فهذا جهدى وقدر طاقتى أقدمه محبة فى رسول الله ﷺ راجيًا شفاعته يوم القيامة .

والله ولى التوفيق .

المصادر والمراجع

- أثر التشبيه فى تصوير المعنى قراءة فى صحيح مسلم – د / عبد البارى طه سعيد – الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
- أدب النديم – محمود بن حسين كشاجم – المطبعة الأميرية – بولاق ١٢٩٨ هـ .
- أسرار البلاغة – للإمام عبد القاهر الجرجانى – تحقيق الشيخ / شاكر مطبعة المدنى .
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى – المكتبة التوفيقية بالقاهرة .
- الأمثال فى القرآن الكريم لابن القيم – مكتبة الصحابة – الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
- الإيضاح مع البغية للإمام الخطيب القزوينى – مكتبة الآداب بالقاهرة – الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م .
- البيان النبوى – د / محمد رجب البيومى – دار الوفاء – الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ
- التحبير د / محمود توفيق سعد – مكتبة العمروسى بالقاهرة .
- الترغيب والترهيب للمنذرى – تحقيق / إبراهيم شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ .
- التشويق فى الحديث النبوى طرقه وأغراضه – د / بسيونى عبد الفتاح فيود – مطبعة الحسين بالقاهرة – الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ .
- تفسير ابن كثير – المكتبة العصرية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .
- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى – دار الكتاب الاسلامى – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

- التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوى – مكتبة الإمام الشافعى – الرياض – الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- الثقات لابن حبان – دار الفكر – الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .
- الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية – د / كمال عز الدين – دار اقرأ – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ .
- دلائل الاعجاز – تحقيق الشيخ / محمود شاكر – مطبعة المدنى – الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .
- دور البلاغة فى تأدية الأغراض الدينية – د / محمد إبراهيم عبد العزيز – مطبعة السعادة الطبعة – الأولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
- ديوان القطامى – تحقيق دكتور / محمود الربيعى – الهيئة المصرية العامة للكتاب
- رياض الصالحين للإمام النووى – تحقيق دكتور / عبد المعطى قلعجى – دار الغد العربى – القاهرة – الطبعة الأولى .
- الزهد والورع والعبادة لابن تيمية – مكتبة المنار – الأردن – الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ .
- سنن أبى داود – تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت.
- سنن الترمذى – تحقيق / أحمد محمد شاكر – دار إحياء التراث العربى – بيروت .
- سنن النسائى بشرح السيوطى – دار الكتب العلمية – بيروت .
- السياق وتوجيه دلالة النص – د / عيد بلبع – الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م .

- شرح أحاديث من صحيح البخارى – د / محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .
- شرح السنة للبغوى – تحقيق / شعيب الأرناؤط – المكتب الاسلامى – دمشق – بيروت ١٤٠٣ هـ .
- الشفا بتعريف المصطفى للقاضى عياض – طبعة مصطفى الحلبى .
- صحيح ابن حبان تحقيق شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .
- صحيح البخارى – تحقيق دكتور / مصطفى ديب – دار ابن كثير – بيروت ١٤٠٧ هـ .
- صحيح مسلم – دار الجيل – بيروت .
- الصورة الفنية فى الحديث النبوى الشريف – د / أحمد ياسوف – طبعة دار المكتبى – دمشق – الطبعة الثانية ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م .
- الطبقات الكبرى لابن سعد – مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة ١٤٠٨ هـ .
- عمدة القارى شرح صحيح البخارى للإمام العينى – دار إحياء التراث العربى – بيروت .
- العمدة لابن رشيق القيروانى – تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد – دار الطلائع ٢٠٠٦ م .
- غريب الحديث للخطابى – تحقيق / عبد الكريم إبراهيم العزباوى – مركز البحث العلمى وإحياء التراث كلية الشريعة جامعة أم القرى .

- فتح البارى لابن حجر العسقلانى – تحقيق / محب الدين الخطيب – المطبعة السلفية – الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ .
- فقه بيان النبوة منهجاً وحركة – د / محمود توفيق سعد – مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .
- كتاب سيبويه – تحقيق / عبد السلام هارون – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- الكشاف للزمخشرى – طبعة دار الفكر .
- لسان العرب لابن منظور – طبعة دار صادر – بيروت .
- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية – دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .
- مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى – د / محمد أبو موسى – مكتبة وهبة .
- مراجعات فى أصول الدرس البلاغى – د / محمد أبو موسى – مكتبة وهبة .
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح – على بن سلطان محمد القارى – دار الكتاب الاسلامى بالقاهرة .
- مسند الإمام أحمد – تحقيق / شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة – الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .
- معالم السنن للإمام الخطابى– تحقيق / عبد السلام عبد الشافى – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .
- معجم ألفاظ القرآن الكريم – طبعة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

- مغنى اللبيب لابن هشام وحاشية الأمير – طبعة الحلبى .
- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى – طبعة دار المعرفة – بيروت ١٩٧٠ م .
- مواهب الفتاح لابن يعقوب – طبعة دار السرور (ضمن شروح التلخيص) .
- الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم – دار الكتاب العربى – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .